التناص القرآني في شعر النقائض الأموية

[1]AHMED R. A. RAWAJBEH, TENGKU GHANI TENGKU JUSOH, MD. NOR ABDULLAH & ZULKARNAIN MOHAMED

ABSTRACT

The Quranic Intertextuality in the Poetry of Opposites Umayyad

The poets of opposites poems take their knowledge from multi-springs of knowledge. So, the direction of Islamic values were added to the knowledge that take from the past and its literature, and from present Islam and its acquaintances, so the poetic culture was colored with the color of the culture which they take. It was the way for the best poets to serve their purpose and to deliver their messages. There is no doubt that the Quran was afar distance of both recipient and poet for his eloquence this type of poem has been associated with the name of obscenity because of the large number insults and exposure of the taboos. This article came to reveal the relationship between the poetic text and the Quranic text in the poem of the three Umayyad poets and to wipe the dust of obscenity which knighted him and to identify the impact of the holy Quran upon its simple, compound and inspiration system and address the extent of correlation of poetic text and overlap with the Holy Quran.

Keywords: the Islamic trend, poets, the complexity of Quran, opposites, intertextuality.

التناص يعني تداخل النصوص،أي توظيف الشاعر لمقتبسات من نصوص في نصه الشعري، ويهدف الشاعر إلى توصيل رسائل معينة، ليؤدي التناص وظيفة مهمة، وهي توسيع أفضية المعنى في النص الشعري وتعميق التأثير في الملتقي. والتناص مصطلح غربي يندرج "ضمن الحديث عن الدراسات اللسانية ولكن الفكرة بقيت شبه ميتة على الرغم من أن بعض الشكلانين الروس من [شكلوفسكي] الذي فتق الفكرة، فاتخذها عنه [باختين] ، وقد حولها الأخير نظرية تعتمد على التداخل بين النصوص" (al-Kalamy 2008) وقد بقي النص في الظل لا يرى نور الشمس حتى جاءت جوليا كرستيفا، الباحثة البلغارية وهي أول من أطلق هذا المصطلح كمصطلح وفّهو بأنه "هو ذلك التقاطع داخل التعبير مأخوذ من نصوص أخرى" (Muhammad 1995).

[1] **Ahmed A.R. Rawajbeh**, M.A. Ministry of Education, Palestine; **Tengku Ghani Tengku Jusoh**, Ph.D. Professor at Dept. of Arabic Studies and Islamic Civilization, Universiti Kebangsaan Malaysia, 43600 Bangi Selangor, Malaysia, Email: tgtj@ukm.my; **Md. Nor Abdullah.** M.A & **Zulkarnain Mohamed,** Ph.D. Lecturers at Dept. of Arabic Studies and Islamic Civilization, Universiti Kebangsaan Malaysia, 43600 Bangi Selangor, Malaysia. Email: naim@ukm.my.

ويراه ناصر شبانه أنه "صيغة صرفية على وزن تفاعل مما تحمله هذه الصيغة الاشتقاقية من معاني المشاركة والتداخل، بما يعني تداخل نص في آخر سابق عليه، ليمسي لدينا نصان: نص سابق ونص لاحق، بينهما علاقة خاصة قد تبدأ بالمس وتنتهي بالتمازج الكلي حتى يبدو الفصل بينهما في غاية الصعوبة" (Shabanah 2007). و"يعيد النص توزيع اللغة وهو حقل إعادة التوزيع هذه. إن تبادل النصوص، أشلاء نصوص دارت أو تدور في فلك نص يعتبر مركزا، وفي النهاية تتحد معه، هو واحد من سبل ذلك التفكيك والإنبناء: كل نص هو تناص، والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال ليست عصية على الفهم، بطريقة أو بأخرى إذ نتعّرف نصوص الثقافة السالفة والحالية: فكل نص ليس إلا نسيجا جديدا من استشهادات سابقة"(al-Biqa'iy 1998).

وعلى ضوء التعريفات السابقة نستطيع القول: إن كينونة التناص تتمثل في تداخل أو تشابك أو تعالق نص حاضر ماثل مع نص أو نصوص سابقة غائبة، لكنها ماثلة في ذاكرة الشاعر، فهو يزاوج نص جديد بنصوص قديمة تتجلى فيها ثقافة الشاعر ودرايته بالنصوص السابقة، ولعله من المقرر المعروف أنّ ثقافة أي إنسان هي حصيلة التعاطي مع ثقافات سابقة مختلفة متعددة المجالات والمستويات،فلا يولد الشاعر شاعراً ولا الناقد ناقداً ولا الباحث باحثاً، إنما وظّف ما اكتسبه في الماضي فيما ينجزه في الحاضر، ولا اعتقد أنني أغالي إذا قلت: إنّ كل عمل أو قول يقوم به الإنسان هو تشابك أو تعالق مع عمل أو قول سابق.

والتناص أكثر التصاقاً بين النص الماثل والنصوص الغائبة من الاقتباس، فهو ينحاز عنه بذلك، إذ إنّ الاقتباس غالباً ما يكون مجرد اقتطاع نص سابق وزجه في النص الماثل ولكن دون التقابل والاتحاد، أما التناص فيتعالق النص الماثل مع النصوص الغائبة إلى درجة الانصهار فلا يسهل الفصل بينهما، ذلك أنّه "يعتمد على تحويل النصوص السابقة وتمثيلها في نص مركزي يجمع بين الحاضر والغائب في نسيج مفتوح، قادر على الإفضاء بأسراره النصية لكل قراءة فعالة تدخله في شبكة اعم من النصوص" (al-Sa'dany 1991).

مظاهر التناص القرآني

ولعل أبهى تجليات الخطاب الديني تتمثل في القرآن الكريم كونه السمة القارّة في ذلك الخطاب، فانكفاء الشاعر اليه شعرياً تعني إعطاء مصداقية متميزة المعاني للخطاب الشعري انطلاقاً من مصداقية الخطاب القرآني نفسه، إذ إنّ القرآن الكريم يعد قمّة البيان العربي، وهو أسمي نموذج يحتذى أسلوبا وفكراً وهداية ودستور حياة.

ولم يأت التناص القرآني في شعر النقائض مصادفة أو عفو الخاطر، بل كان مستحضراً يوظّف في سياقات المنجز الشعري تعميقا وإثراء فنيا وفكريا، ويبدو أن للثقافة الدينية التي تملكت الشعراء وقرب عهدهم بالنبوة وكثرة الفرق الدينية والمناظرات والمجادلات، أسهمت بشكل كبير في تشكيل وتجسيد ثقافة شعراء النقائض الدينية على تمايز بينهم، فالفرزدق كان قد قيد نفسه لحفظ القرآن الكريم،وجرير كان أكثر تديناً وتأثراً بالمعتقد الديني، بينماكان الأخطل نصرانياً لا يقرأ القرآن، ولكن هذا لا يعني أنه لم يمتاح من معين القرآن العذب، ولكن لا يقاس بزميليه ولعل كفره جعل جرير يتكئ بشكل صائت على العنصر الديني ويجلد الأخطل به كلما أتيحت له الفرصة لذلك.

فليس غريباً إذاً أن يُكسب القرآنُ الكريم شعرَ الفحول الأمويين رونقاً وجمالاً فنياً عن طريق التناص القرآني وتعالق النص الشعري الماثل بالنص القرآني الغائب، حيث تلاقحت النصوص الشعرية مع النصوص القرآنية في شبكة واحدة لتنتج أدباً حديداً متميزاً ينّم عن مدى إندغام ثقافة الإسلام في فكر الشاعر والمتلقي على حد سواء، لأن الشاعر ما وظف النص القرآني إلا ويعلم مدى أثره في نفس المتلقي.فهذا جرير يستقي من الذكر الحكيم فيوظف النص القرآني في الهجاء في قوله (al-Basry 2007):

تَبَيَّنَ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ حُمْرَةِ اسْتِهَا　　　بُرُوقٌ وَصُفْرٌ مِنَ اللَّوْنِ فَاقِعُ

ولعل الشاعر يحيلنا في الشطر الثاني من هذا البيت إلى قوله تعالى في سورة البقرة، في بقرة بني إسرائيل: قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (al-Quran, al-Baqarah 2:69)وبالنظر إلى النص القرآني نجد الشاعر لم يتصرف بالنص إلا بالتشكيل الفني والتقديم والتأخير، حيث إنَّ النصية في الشعرية العربية " تكشف عن تصور يعيد بناء هذه الشعرية ضمن رؤية لها إستراتيجية الإبدال النصي، وممارسة القطعية بطريقة ضمنية أو علنية"(Ibn Khalifah 2006) فهذا جرير يمارس هذه القطعية فيصنع نص متقاطع مع النص القرآني في هجاء الفرزدق مخاطباً والد فتاة تزوجهاالفرزدق،معاتبا إياه على تزويجها له(al-Basry 2007):

يا زِيقُ أَنْكَحْتَ قَيْناً بِأَسْتِهِ حَمَمٌ　　　يا زِيقُ وَيْحَكَ مَنْ أَنْكَحْتَ يا زِيقُ

يا زِيقُ وَيْحَكَ كانَتْ هَفْوَةً غَبَناً　　　تيانُ شَيانَ أَمْ بارَتْ بِكَ السُّوقُ؟

فالبيت الثاني يتعالق مع النص القرآني: الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (al-Quran, Fatir 35:29) ويستغل جرير هذا المعنى القرآني العظيم المتمثل بتجارة المؤمن مع الله التي لن تكسد ولن تضيع هباءاً، ويوظفه في التشنيع على الفرزدق، فجعله في أدنى مراتب الناس، إذ يسأل الشاعُر زيقاً هذا هل بارت بك السوق حتى زوجتها للفرزدق؟ فاستخدم لفظة" باررت" الفعل الماضي بدل الفعل المضارع" تبور"، واستخدم كلمة "السوق"، وجاء في الآية "تجارة"، ومع ذلك بقيت دلالة اللفظ على حالها والفضاء الديني بقي كما هو. وينهل الفرزدق من معين القرآن الكريم ليقارن بين أحساب قومه الباذخين المترفين وأحساب جرير فيقول:

أَتَعْدِلُ أَحْساباً كِراماً حُماتُها　　　بِأَحْسابِكُمْ؟ إِنّي إِلَى اللهِ راجِعُ

ـا إذا الجَبّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ　　　ضَرَبْناهُ حَتّى تَسْتَقيمَ أَخادِعُ

(Fa'ur:n.d.)، يبدو أن الشاعر أحدث تغيراً في بنية النص القرآني: الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (al-Quran, al- Baqarah 2 :156) مما يتناسب مع قافية البيت، ولعله ابرز بذلك تعظيم الذات وتهميش الأخر، وهذا يتناسب مع نفسية الفرزدق المتعالية، فقد احتكم إلى الله سبحانه وتعالى على ضرب من السخرية من جرير وقومه المنبثقة من

الاستفهام التهكمي (أتعدل). كما تداخل البيت الثاني في قوله تعالى: وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (al-Quran, Luqman 31:18) ،التي برزت فيها حقارة المتكبرين في أقبح الصور التي رسمها القرآن الكريم لهم،وكأن الشاعر استلهم هذا المعنى ليكشف زهوه وكبريائه، فضلاً عن شجاعته التي عمد إلى إظهارها. ومن الاستحضارات التناصية التي أربك فيها جرير خصمه الفرزدق هذا التركيب القرآني الذي اتكأ عليه،فجعله في قول(al-Basry 2007):

تَلاوَمُونَ وَقَدْ أباحَ حَريمَهُمْ قَيْنٌ أَحَلَّهُمْ بِدارِ بَوارِ

ولا تخفى العلاقة التناصية بين الشطر الثاني وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (al-Quran, Ibrahim 14:28)،وهو يريد بذلك الهلاك، فجعل الصورة ترتسم ذاتها كما رسمها القران الكريم بفارق الأفراد في بيت الشعر بالضمير العائد على الفرزدق والجمع في قوله تعالى (أحلوا)، فلم يجد الشاعر أعظم قدرة على التعبير وأبلغ أثراً في النفوس من كلام الله تعالى فاستعاره لذلك، فيكون بذلك اعتمد على" تداخل النصوص أو تعالقها، تكثيفها أو تحاورها في بناء رسوبي عميق هو المقترب التناصي الذي بموجبه تفسر النصوص بعضها بعضا"(al-Sa`dany 1999).

وتتجلى قدرات الفرزدق في سياق المدح حيث يغترف من معين القران الكريم ليدبّج منجزه الشعري ويرصعه بلوحات فسيفسائية؛ لينال رضى الممدوح كونه خليفة أو قائد يجب أن تُسبغ عليه حلل الدين والتقى والورع. "فالنص صيرورة وتحويل وتجاوز، ولا يمكن عدّه مادة لها أبعاد ثابتة، إنه بأبعاده اللفظية تجاوز للواقع، وزعزعة للجمود، وفي هذا تكمن حركيته، والنص متقاطع مع سائر النصوص، وقد أعيدت صياغتها أثناء بنائه، فهو بناء زخرفي، تتنوع مكوناته، وآيات القرآن الكريم مصدر من مصادر بنائه بناء يتجاوز الثابت والمألوف، وتصاغ الآية الواحدة صياغات عديدة تتلاءم مع غاية الشاعر" (Abu Sharar 2007)،ففي مدحه لهشام بن عبد الملك أعاد صياغة النص القرآني، وجعله ينصهر في المنجز الشعري، كقوله:

بَلِ اللهُ حَبْلُكَ مَنْ يَنَلْهُ فَما يُرى إلَيْهِ مِنَ انْفِصامِ

ساءَ بِسُنَّةِ عُمَرَيْنِ بِها شِفاءٌ لِلصُّدورِ مِنَ السَّقامِ

(Fa’ur: n.d)، فقد تعالق الشاعر في نصه المنتج مع أكثر من آية تنسجُم مع هدف الشاعر وفيها تقاطع واحد يشير إلى مدح الخليفة بالإيمان والقوة والوحدة والشفاء من السقام، ففي البيت الأول في شطره الأول يتقاطع النص مع قوله: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (al-Quran, Ali `Imran 3 : 103) وبقوله (وحبل الله حبلك)، فقد جعل حبل الخليفة كحبل الله الذي يعتصم به الناس جميعاً ، وفي الشطر الثاني يتعالق بقوله (العرى... انفصام) مع قوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. (al-Quran, al-Baqarah 2:256).

مع تغيير في بنية العرى التي جاءت "العروة" في الآية الكريمة ولكن الدلالة التي أرادها الشاعر تنسجم مع دلالة الآية الكريمة، فلا انفصام لمن يستمسك بالعروة الوثقى ويؤمن بالله، كما لا انفصام لمن يتمسك بحبل الخليفة ولا ينفصم عنه. وفي البيت الثاني تناص الشطر الثاني منه في عبارة (شفاء للصدور) مع قوله تعالى: أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (al-Quran, Yunus 10:57). فقد تقاطع النصان عند الشفاء في الصدور من العلل والمرض، فالموعظة فيها شفاء ورحمة لصدور المؤمنين، وسنة العمرين التي التزمها هشام بن عبد الملك فيها شفاء لصدور المؤمنين من السقام والجهل والارتياب.

ونجد الفرزدق يخاطب رفيق رحلته الذي اخذ النعاس يداعب جفنيه، فيخلق فضاءات دينية تمتزج في بنية المنجز الشعري من خلال هذه الإشارات التي ينجح الشاعر في نقل المتلقي إلى حيث يريد ويجعله يعتقد بما يقوله مستفيداً من القوة الإعجازية التي تمتع بها القرآن الكريم، والتي "تغني النص جماليا، وتكسبه بعدا انفعاليا، مبعثه الإحساس الجمالي بالنص، والقرآن الكريم بكل طاقاته البلاغية يتضمن صورا ناجزة، يستطيع الشاعر أن يعثر عليها ؛ لينقلها من موقعها الأصلي إلى موقع جديد، يتناسب مع دلالتها؛ فتصبح جزءا من النص الشعري، تنسجم معه، وتتآلف مع عناصره؛ فتضحي عنصرا حيويا فعّالا، يتميز بقوة تأثيره ؛ فيتفوق في ذلك على باقي عناصر النص" (Abu Sharar 2007)، كقوله (Fa`ur n.d) :

تَسَيُدْنِيكَ مِـــنْ خَـيْرِ البَرِيَّـــةِ فَاعْـــدَل،	لقُـــول نَـــصِّ الـــيَعْلاتِ الرَّواسِـــمِ
إلى المُـــؤْمِنِ الفَكَّـــاكِ كُـــلِّ مُقَيَّـــدٍ	ـــدَاهُ وَمُلْقِـــي الثِّقْـــلِ عَـــنْ كُـــلِّ غَـــارِمِ

فمن الواضح أن الشاعر في البيت الأول فتح للمتلقي فضاءً روحانياً عندما وظف (خير البرية) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (98:7 al-Quran, al-Bayyinah) فقد تساوق الشاعر في استخدام العبارة لفظاً ومعناً مع القرآن الكريم، وهو الثناء على الممدوح بأنه صاحب إيمان وصلاح وهذا ما عبرت عنه الآية، ولعل ذلك يجعل المتلقي يثق بصدقية النص ويجعل الممدوح يشعر بالرضا والاطمئنان.

فالتناص نوع من التأويل، يتحرك فيه المتلقي بحرية وتلقائية، وذلك بإرجاع النص إلى بعض العناصر الأولى التي شكّلها بغية الوصول إلى فك شفراته المتكونة من ثقافة المبدع ؛ إذ عبْر التناص تتحول تلك الثقافة اللغوية إلى رموز يسعى المتلقي لتفسيرها من أجل الوصول إلى ماهية الشعر، (Abu Sharar: 2007)، فهو حين يجعل من تكذيب الأخطل وقومه للرسل وجبريل وميكائيل حجة تسوّغ له الانتقاص منهم يرتكز على قوله تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (al-Quran, al- Baqarah 2 :69) :

ـــنُوا الصَّـــلِيبَ وَكَـــذَّبوا بِمُحَمَّـــدٍ	بِجِبرائِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالا لِمَــي

وفي معرض ترجيح كفة قيس على غيرها يقول (Tammas 2000):

رَفُـــــوا الكِتـــابَ وَصَـــدَّقوا بِمُحَمَّـــدٍ	وَضَـــيْتُم بِعِبـــادَةِ الأَوْثـــانِ

(al-Yasu`iy 1922) فقيس عرفت الحق وآمنت به واتبعته، على نقيض تغلب النصرانية، وكأنه بقوله (عرفوا الكتاب) يحيلنا لقوله تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (al-Quran, al-Baqarah 2:146). لعل هذا التوظيف لألفاظ الذكر الحكيم في هذا البيت لا ينسحب على المعنى بشكل عام؛ لأن المعرفة التي أرادها القرآن الكريم تختلف عن المعرفة التي أرادها الشاعر فلكل معرفة وجهتها واتجاهها، ولكن النص الشعري أصبح نسيجا واحدا منفتحا على عوالم علوية قدسية مشرقة.

والتناص تلك الظاهرة اللغوية المعقدة التي "تستعصي على الضبط والتقنين إذ يعتمد في تميزها على ثقافة المتلقي وسعة معرفته وقدرته على الترجيح" (al-Dahun 2001). ويستغل جرير مثل هذه الثقافة ليحط من شأن خصومه فيرتشف الصور من آيات القرآن الكريم؛ ليجعل شعره أكثر فتكاً وإيلاما لخصمه كمثل قوله(Tammas 2008) :

غ بَني وَقبَان أَنْ حُلومُهم خَفَّت فَما يَزِنُونَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

ولعل البيت يحيلنا إلى قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (al-Quran, al-Abiya 21: 4) ولكن الشاعر تصرف في الدلالة إذ خرق دلالة الآية إلى دلالة أخرى، فالله سبحانه تحدث عن العدل والقضاء بالقسط يوم القيامة، فلا يظلم الناس مقدار حبة خردل، أما جرير فقد جعل الدلالة تنصرف إلى الحط من شأن خصمه، فيسمهم بالسفه والطيش فعقولهم لاتزن حبة خردل. وجرير يوظف تلاقح النصوص القرآنية بالمنتج الشعري في الغزل على نمط العذريين ،حين يقول (Tammas 2008) :

رَغِبْتُ إلى ذي العَرْشِ مَوْلَى مُحَمَّدٍ لِيَجْمَعَ شَعْباً أَوْ يُقَرِّبَ نَائِيَا

أَذَا العَرْشِ! إني لَسْتُ مَا عِشْتُ تَارِكاً طِلابَ سُلَيْمَى، فَاقْضِ مَا كُنْتَ قَاضِيَا

فالشاعيستنير بقبس من الذكر الحكيم ممتصاً ومحّواً البنيّة القرآنية بما يتماها مع رؤيته وموقفه الشعوري، فالتحكم بلغة الشعر بكل ما تتضمنه من مثيرات لهو دليل على قدرة الشاعر على الإبداع في تشكيل بناء متكامل، والقرآن جانبا من هذا التشكيل، كما في البيت الثاني، إذ شكلت الآية القرآنية مرتكزا في إبداع النص كقوله تعالى: قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (al-Quran, Taha 20:72). فجرير يضطر إلى أن يستبدل (كنت) بدلا من (أنت)، وأن يزيد (يا) ليبوح بالبكاء والحرقة من بعاد (سليمى)، فضلا عن أهمية التناص في الكشف عن نفسية الشاعر لاستعدادها للفناء والهلاك إذا لم تكن بالقرب من المحبوبة. ويتضح أن الشاعر حاد بالنص القرآني عن سياقه الأصلي إلى سياق جديد وهو التمسك والتفاني في سبيل طلاب سلمى.

والأخطل ينغمس في هذا التعالق النصي فيحيلنا إلى خطاب قرآني مختزن في الذاكرة تتولد معه شبكة تعالقية لحظة توليد النص الشعري فيلون منجزه بلوحة فسيفسائية مبدعة كقوله (al-Hawy:n.d):

أَحْيَا الإِلهُ لَنَا الإِمَامَ فَإِنَّهُ خَيْرُ البَرِيَّةِ لِلذُّنُوبِ غَفُورُ

نُورٌ أضاءَ لَنا البِلادَ وقَدْ دَجَتْ   ظُلَمٌ تَكادُ بِها الهُداةُ تَجُورُ

أفبما أنّ "القرائن المعرفية عادة تعمل على توسيع الأفق الدلالي للاستراتيجيات النصية الفاعلة في العمل الشعري" (al-Sa`dany 1991) فقد جعل الممدوح يصطبغ بصبغة إسلامية خالصة ممطتيا هذه القرائن، حيث ارتكز على تناص معاني آيات عدة في هذين البيتي، ففي قوله(خير البرية) استند إلى قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (al-Quran, al-Bayyinah 98:7). وفي قوله (للذنوب غفور) استند على قوله تعالى (al-Quran, Ali-Imran 3:31): قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وفي البيت الثاني استند على قوله تعالى: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(al-Quran, al-Maidah 5 :61). ولعل هذا الأخذ الواسع لألفاظ وتعابير القرآن الكريم وتوظيف القصص القرآني والمصطلحات الإسلامية، يشير بشكل أو بأخر إلى مدى واندغام الإسلام في ثقافة الشاعر وقدرته على التساوق معه كدين الدولة والمجتمع وإن كان لا يدين به، ومن ذلك قوله (al-Yasu`iy 1922):

عَفا واسِطٌ مِنْ آلِ رَضْوَى فَنَبْتَلُ   فَمُجْتَمَعُ الحُرَّيْنِ فَالصَّبرُ أَجْمَلُ

فنجد هنا أنه قد تحقق للأخطل في هذا البيت ما أراد، حيث استطاع بعبارة واحدة "أن يحيل إلى مشهد قرآني متكامل، ولكن في ذهنيته قارئ يشاركه ثقافته وتجربته" (Abu Sharar 2007) فعبارة (فالصبر أجمل) ارتشفها الشاعر من آية كريمة هي قوله تعالى: وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (al-Quran, Yusuf 11: 82) فقد احالتنا إلى قصة يوسف عليه السلام بعبارة مركزة. ولا نعدم التناص الإيحائي في الغزل فقد اتكأ عليه جرير في حديثه عن سماع صوت المحبوبة التي توهم قربها في قوله (Tammas 2008):

خَليلَيَّ! لَوْلا أن تَظُنَّا بِيَ الهَوَى   عَلى ما تَرَى مِن هِجْرَتي واجِيَا

قِفا! فاسْمَعا صَوْتَ المُنادِي لَعَلَّهُ   قَرِيبٌ، وما دانَيْتُ بالوُدِّ دانِيَا

إنّه التنبؤ لسماع صوت المحبوب الذي يتوهم قربها، فيومئ للمتلقي بفتح فضاء القصص القرآني الذي تماثل فيه هذا الموقف وهو تنبؤ يعقوب _عليه السلام_ عندماإشتّم ريح يوسف علي السلام في قوله تعالى: وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (al-Quran, Yusuf 12: 95) ، فالشاعر يخاف أن ينعت بالجنون وإلا لقال لصحبه: إنه يسمع صوت (عقيلة) تناديه. وهذا يرتد بنا إلى يعقوب عندما اشتم ريح ابنه يوسف _عليهما السلام_. على أن الاختلاف بائن في صدقية التنبؤ، فبشارة يعقوب _عليه السلام _على وجه الحقيقة لا التوهم، أما بشارة جرير بسماع صوت المحبوبة فهو وهم لا حقيقة. ومثل هذا التناص نجده في قول الفرزدق كذلك (al-Yasu`iy 1922) :

إنِّي ضأنك يا جَرِيرُ فإنّما   مَنَّتْكَ نَفْسُكَ في الخَلاءِ ضَلالا

فهو يومئ هنا إلى آية قرآنية كريمة لم يذكرها في البيت وهي قوله تعالى (al-Quran, al-Baqarah 2: 14) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. فالخلاء والاختلاء بالنفس يشير إلى الاختلاء بالشيطان، وجعل الضلال هو جامع مشترك ما بين خلوة جرير وقول المنافقين ،فالشاعر هنا في حالة إيماء" لما يكمن في النفس من إحساس، ينطلق من عالم اللاوعي المتأمل في الواقع تأملا باطنيا، يحاول أثناءه أن يرسم صورة جديدة، يشكلها الحدس لعالم غير خاص تشكيلا خاصا، تختفي معه هيئة ذلك العالم الراسخة في الذهن" (Abu Sharar 2007) وقد أومئ الشعراء بمثل هذا بالإشارة إلى عقر ناقة صالح بآية أو جزء منها كقول الأخطل الذي استوحى فكرة قوم صالح، فعبر عن الذين عقروا الناقة (براغية السقب) في قوله(al-Yasu`iy 1922) :

لَعَمري لَقَد لاقَت سُلَيمٌ وَعامِرٌ   عَلى جانِبِ الثَرثارِ راغِيَةَ السَقبِ

فجعل بني سليم وبني عامر يلاقون من العذاب والقتل ما لاقاه الذين عقروا الناقة، فأومئ لنا بالقصة دون أن يذكر آية صريحة من قوله تعالى ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (al-Quran, al-Shu`ara' 26:198) فالإنتاجية "الشعرية عملية استرجاع النصوص القديمة، وقد يكون الأمر بشكل خفي أحيانا، بل يمكن أن يكون هذا الانتهاج الشعري تحويرات لماسبقه"(al-Ruba'iy 2006).

ويسقط جرير بعض الشخصيات والأقوام الواردة في القرآن على شخصية المهجو، فقد ربط جرير عرادة النميرين بقصة قوم لوط في قصيدته الدافقة وذلك يقول (Tammas 2008):

عُرادَةُ مِن بَقِيَّةِ قَومِ لوطٍ   أَلا تَبّاً لِما عَمِلوا تَبابا

فقول الشاعر (قوم لوط) يوحي للمتلقي ويحيله إلى قصة قوم لوط التي اختزنها في الذاكرة ولارتباطها بالقرآن الكريم الذي تمتع بصدقية عالية في نظر المتلقي، مما يجعله يعمق أثر الهجاء ويقارب التشبيه بين عراد وقوم لوط في الفسق والفجور والمخازي المشينة، وهو بذلك يحيل المتلقي إلى قوله تعالى: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (al-Quran, al-`A'raf: 80-81) وقوم لوط هم الذين يأتون الذكران من العالمين ويذرون ما خلق الله لهم، وقد نعت الشاعر عرادة، أنه من بقية قوم لوط فألصق به ما أسقطه عليهم القرآن من خزي وعار.فالتناص على درجة من الأهمية فلا يعدم أن يكون" وسيلة تواصل لا يمكن أن يحصل القصد من أي خطاب لغوي بدونه (Miftah 1986).

إنّ "وظيفة التناص الأساسية تكمن في الوظيفة التي يقوم بها، ليخدم هدفا ويقوم بمهمة سياقية ليثري من خلالها النص ويمنحه عمقا، ويشحنه بطاقة رمزية لا حدود لها ويكون بؤرة مشعة لجملة من الأبحاث(al-Bady 2009)فشحنة الطاقة هذه يستغلها جرير فلا يترك فرصة يخاصم فيها الأخطل في الدين إلا استفاد منها، وأحسن استغلالها حتى في الموت والجنائز كقوله (Tammas 2008):

تَغشى المَلائِكَةُ الكِرامُ وَفاتَنا   وَالتَغلِبِيُّ جَنازَةُ الشَيطانِ

فيستغل الشاعر مخزونه الثقافي الديني الذي جعل منه عصاً غليظة يطرق بها الأخطل فينتقص منه حتى في سبيل الموت، وهو يعلم أنه لا قدرة للأخطل على نقض مثل هذه المعاني، فأومئ بآيات من القرآن الكريم كقوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. (al-Quran, al-Nahl 16:32) فكلا النصين القرآني والشعري يعبر عن احتفاء الملائكة بأموات المؤمنين، ولعله استمد عبارة "والتغلبي جنازة الشيطان" من قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ. (al-Quran, Muhammad 47:206) ويبدو هذا التناص صادر عن وعي، وهو الذي "يقصد إليه الشاعر أو الكاتب قصدا، ويعرف مصدره ويستخدمه استخداما فنيا له غايته ووظيفته"(al-Sanjalawy 1988) وفي تعير مجاشع لعدم نجدة الزبير وغدرهم به يقول جرير(Tammas 2008):

تـــدنَّكوا حُـطـــلَ الم ُ لمُـــــك فـــــإنَّكم ◆ بَعـــد الـــزُّبَير كحـــائضٍ لم تُغتسـل

فجعل القذارة والنجاسة التي تلازم مجاشع؛ لغدرهم بالزبير كحال الحائض تنتفي عنها النجاسة بانقطاع الدم والاغتسال، وهو الذي لن يتحقق لمجاشع، وهو بذلك يحيلنا إلى قوله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (al-Quran, al-Baqarah 2 :222). وقد امتلك الشاعر مهارة فنية في الإفادة من النص القرآني وأحسن توظيفه والإحالة إليه، ويكشف فضاءات ثقافيه واسعة تجعل القارئ ينتقل إلى لوحات متنوعة بين الشعر والقرآن الكريم. وهذا يعني أن التناص يشكل النص الجديد، ولكنه بعد أن يعيد إنتاجه وإخراجه وصياغته بعد تمثيل وتحويل نصوص متعددة في نص جامع يحتوي زيادة في المعنى (al-Ruba'iy 2006) . ويستند الأخطل على مثل هذه الإحالات في المدح للخلفاء والولاة، وفي الهجاء كما فعل في هجاء قيس عيلان فيقول (al-Hawy, n.d).

كـــانوا ذوي ــــــةٍ ، حــــتى إذا بطـــرت ◆ ــــــم ــــــل للشّـــيطانِ ابتهـــروا

صَـــكّوا علـــى شـــارفٍ، صَـــعْبٍ راكبُـهــا ◆ ـــــاءَ لَــــيْسَ لهـــا هُلـــبٌ ولا وبـــرُ

فهم بخروجهم على بني أمية بعد أمنهم ورغد عيشهم كمن يوسوس له الشيطان ويغرر به فيركب مركباً وعراً، يشبه إلى حد كبير ركوب الناقة المسنة التي لا وبر لها وجسمها هزيل وهذا المعنى يندغم في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (al-Quran, Ibrahim14: 28) وقوله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (al-Quran, al-Nahl 16:112)، فالشاعر يستمد "جانبا من فكرة النص القرآني ليحذف ، ويضيف بما يتلاءم مع وضعيته النفسية، فالنص القرآني يتكيّف مع النص المنتج" (Abu Sharar 2007) ففي مدح بني أمية يسلك هذا المسلك الذي يرضي الممدوحين، ويتفق مع إيديولوجيتهم في الحكم، فيمتاح من معين القرآن الكريم ليسبغ عليهم هالة من الإجلال والإكبار؛ لأنهم يلتزمون بما أمر الله وهو يحتكم إلى كتاب الله ليجعل حكمهم قدراً ربانياً لا مندوحة عنه ، وهو يعمل على استنطاق

لغة القرآن لتحقيق مراده، فالقرآن الكريم "تجسيد للغّة وللفكر في هذه اللغة، فهو أثر لغوي يبسط على سائر المجالات اللغوية، وفي حضوره المهيمن مغزى خاص، والشعر أحد تلك المجالات المتأثرة باللغة القرآنية" (Abu Sharar 2007) :

يَ أَشَــــــروا فيـــــهِ إِذْكـــانوا َموالِ يَ ــــــه ولــــــو لِقَــــــومِ غَــــــيرِهِم أَشِــــــروا

فهو يرتشف في ذلك معنى قوله تعالى (al-Hawy:n.d) مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (al-Quran, al-Fath 48: 29). فالقوة والشدة على العدو والرحمة على المسلمين من خير ما ينماز به المؤمن.

"ومن هنا استقرت فكرة الارتداد إلى الماضي، وتعامل الشعراء مع التراث، فكل كاتب لا بد له قبل الرجوع، واعيا أو غافلا، إلى كل ما هو ماض والتعامل معه، ولكنه يستخدمه بشكل يحفظ له خصوصيته فيأخذ منه ما يتناسب ونهجه" (al-Ruba`iy 2006) ولعل أشرف ما يُردُّ إليه القرآن الكريم، آخر الكتب السماوية وافصح لسان عربي مبين، لذالك نتبن مدى تماهي الثقافة القرآنية بالمنجز الشعري ، حيث استمد الشعراء من نبعه الثر ما يزين قولهم ويقوي منطقهم.

References

Al-Quran Al-Karim .

Abu Sharar, Ibtisam Musa Abd al-Karim. 2007. *al-Tanas al-Qurani wa al-Tarikhi fi Syi`r Mahmud Darwish*. Risalat al-Majistir. Jami'at al-Khalil.

al-Bady, Hussah. 2009. *al-Tanas fi al-Shi'r al-Arabi al-Hadith-al-Barghuthy Namudhajan.* Amman: Dar Kunuz al-Ma'rifah.

al-Basry, Abu 'Ubaydah Muammar Ibn al-Muthana al-Taymi. 2007. *Kitab al-Naqa'id –Naqa'id Jarir wa al-Farazdaq*. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.

al-Biqa'i, Muhammad Khir. 1998. *Dirasat fi al-Nas w al-Tanasiyyah*. Halab: Markaz al-Inma' al-Hadari.

al-Dahun, Ibrahim Mustafa Muhammad. 2001. *Al-Tanas fi Shi'r Abi al-'Alaa al-Ma'ri.* Irbid: 'Alam al-Kutub.

Fa'ur, Ali. n.d. *Diwan al-Farazdaq*. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyah.

al-Hawy, Ilya Salim . d.t. *Sharh Diwan al-Akhtal al-Taghlabi*. Beirut: Dar al-Thaqafah

Ibn Khalifah, Mashry. 2006. *al-Shi'riyyah al-Arabiah-Marj'iyyatuha wa Ibdalatuha al-Nasiyyah.* Amman: Dar al-Hamed li al-Nashr wa al-Tawzi'.

al-Kalamy, Najiyah Muhammad. 2008. *al-Tanas al-Qurani fi al-Shi'r al-Liby al-Hadith*. Majallah al-Satel. Jami'ah al-Sabi' Min Oktober. Libya. al-'Adad. 4.

Miftah, Muhammad. 1986. *Tahlil al-Khitab al-Shi'ry Istratijiyah al-Tanas*. al-Maghrib: al-Markaz al-Thaqafi al-Arabi.

Muhammad, Abd al-Mutalib. 1995. *Qadaya al-Hadathah 'ind Abd al-Qadir al-Jalajani*. al-Qahirah: Sharikah Abu al-Haul li al-Nashr.

al-Ruba'iy, Ruba Abd al-Qadir. 2006. *al-Balaghah al-Arabiyah wa Qadaya al-Naqd al-Mu'asir*. Amman: Dar Jarir.

al-Sa'dany, Mustafa. 1991. *al-Tanas al-Shi'ry Qira'ah ukhra li Qadiyat al-Sariqat.* al-Iskandariyah: Munsha'at al-Ma'arif.

Shabanah, Naser Jabber. 2007. *al-Tanas al-Qurani fi al-Shi'r al-Arabi al-Hadith*. Majallah Jami'at al-Najah al-Wataniyyah li al-Abhath (al-'Ulum al-Insaniyah). al-Mujallad 21(4).

Sharrad, Shaltagh Abud. 1987. *Athar al-Quran fi al-Shi'r al-'Arabi al-Hadith. Damsyik:* Dar al-Ma'rifah.

al-Sinjalawy, Ibrahim. 1988. *Dalalat al-Tadmin fi Khawatim Qasaid Abi Nawas*. Damshik: Majallah Jami'at Dimashq. al-'Adad (9).

Tammas, Hamdu. 2008. *Diwan Jarir*. Beirt. Dar al-Ma'rifah.

al-Yasu'iy, Antwan Salihani. 1922. *Naqa'ad Jarir wa al-Akhtal*. Beirut: al-Matba'ah al-Kathulikiyah li al-Aba' al-Yasu'iyyen .